كلمة تقال ...!!

للأستاذ محمود محمد شاكر

أخي الأستاذ علي الطنطاوي

سلام عليك . يقال في المثل : «كرها تركب الإبل السفر» وقد استطعت أنت أن تكره العلم إلى ما أردت أن أنزهه عنه . فلولا ما أضمرت من قديم المودة لك، ولولا ما عرفت من صدقك، ولولا أني أجلك عن أن تكون مجهولا إلى غير صواب ، ولولا أني أكره أن تأخذ عني شيئاً لم أقله بلساني ، لولا ذلك كله ، لكان أبغض شيء إلي أن أستكره نفسي على غير ما رأيت أنه أجمل بي وأصون . وإنك لتعلم ، أيها الصديق القديم ، أني أكره أن أزداد من الشر ، أو أن أتزود من لجاجة الباطل ، والكتابة في زماننا هذا شر مستحكم ، وباطل لجوج متوقح . وقد اقتحم وعرها من لا يحسن المشي في سهولها ، وتشهاها من لو أنصف نفسه لحال بينها وبين ما تشتهي ، وأتخذها صناعة من لو عقل لأعفى نفسه من مزاولتها . ولكن هكذا كان ، ورحم الله الطائي إذ يقول لمحمد بن عبد الملك الزيات :

أبا جعفر ، إن الجهالة أمها ... ولود ، وأم العلم جذاء حائل
أرى الحشو والدهماء أضحوا كأنهم ... شعوب تلاقت دوننا وقبائل
غدوا ، وكأن الجهل يجمعهم به ... أب ، وذوو الآداب فيهم نواقل

وأنت تعلم أن من أنصب النصب ، أن تتصدى لإفهام من لا يفهم عنك ، فإذا بلغ الأمر أن تراه يتصنع لجدالك ، فاذكر قول من قال : إذا أردت أن تفهم عالما فأحضره جاهلا . وقد لقيت أنا من شر ذلك ما لقيت ، فآثرت أن أسلك سبيلي لا يشغلني عنه متعلق بأذيالي ، إرادة أن يصرفني من الوجه الذي أردت

ولقد قرأت كلمتك في الرسالة ، فأسفت أشد الأسف ، لأني عرفت منها أنك لم تقرأ ما كتبته في مجلة « المسلمون» وفي أربعة أعداد منها . ولو كنت قرأتها لما كتبت ما كتبت، لأني لا أشك في ذكائك وحسن فهمك . فأنا لم أتعرض في شيء منها لبني أمية أو بني العباس ، ولا لحكمهم ، ولا لسياستهم ؛ فعجبت أشد العجب كيف يمكن أن تكون مني أو على في أمر لم أقل فيه كلمة، ولا يعلم أحد ممن كتب رأيي فيه ، ولا كيف أقول إذا أنا تعرضت للبيان عنه ؟ فمن أجل ذلك عجبت ، لأنك لم تنصف على عادتك من الإنصاف

وأنا محدثك باختصار عن هذا الذي كتبته . أصل ذلك كله أني رأيت من كتب من المحدثين في شأن تاريخ الماضين من أسلافنا ، يكتب أو يتحدث بأسلوب أقل ما يقال فيه أنه مشوب بالحماقة الشديدة ، مختلط بالجهالة التراكية ، في معرفة أصول التاريخ ، مغموس في حمأة من الافتراء والتطاول ، مستنقع في أهواء سيئة رديئة . وزعمت أن للناس أدبا وأسلوبا في كتابة التاريخ ، وأن للمسلمين خاصة أدب وأسلوب في التاريخ ينبع من أصل دينهم ، في العدل ، وفي حسن النظر ، وفي الأناة في طلب الحق ، وفي كف اللسان عن التهجم بالقول السيء على عباد الله بلا بينة ، وفي التناهي عن اقتفاء المرء ما ليس له به علم ، وفي التثبت من الأخبار قبل تصديقها . وهو أدب كما تعلم كان قديما في كتبنا ، ولكن حضارة هذا القرن قد نشبت وباء شديد الفتك ، ذهب بأكثر هذا الأدب ، وأخذت في طريق أضرب المثل على هذا بكتاب رأيته لم يتورع عن سلب الناس دينهم ، ولم يخش الله في نفي الإسلام عن بعض أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وفي تصوير أعمالهم بصورة أعمال المنافقين، وفي أخذ الروايات الباطلة وجعلها دليلا على التميزة في إيمانهم ، وفي رد الروايات الثابتة الصادقة بروايات كاذبة ادعاها مدع من الرافضة، إلى غير ذلك مما سأبينه فيما أكتب في مجلة «المسلمون» وزعمت أن هذا ليس ديدن هذا الكاتب وحده ، بل صار ديدنا لأكثر من يكتب الآن في شيء من تاريخ هذه الأمة المسلمة ، حتى صار الطعن في صحابة رسول الله أمراً مرتكبا بلا حذر

وما دمت لم أزد في كلامي على هذا ، فلست أدري بعد ما الذي يحملك على أن تخذلني أو تتصرف في أمر لم أنطق بعد فيه بكلمة! نعم ! قد يكون رأيي فيما أبديت أنت فيه رأيك ، مخالفا لك ، ولكني لم أتكلم بعد فتعرف حجتي فيه . بل لعلي إذا كنت قد